

الدرس الرابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

بابٌ من الشرك النذر لغير الله ؛ وقول الله تعالى { يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا } [الإنسان: ٧]

هذا الباب ((بابٌ من الشرك النذر لغير الله)) هو أحد أبواب جاءت في كتاب التوحيد متتالية لبيان بعض أنواع الشرك الأكبر الناقل من الملة ، فذكر في الذي قبله الذبح لغير الله ، وفي هذا الباب النذر لغير الله ، وفي الذي يليه الاستعاذة بغير الله ، وفي الذي أيضا بعده الاستغاثة بغير الله ودعاء غيره سبحانه وتعالى ؛ فهذه كلها من أنواع الشرك الأكبر الناقل من الملة ، لأن الشرك الأكبر حدّه صرف العبادة أو شيء منها لغير الله سبحانه وتعالى . والعبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

وقد دلت الدلائل في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ومنها ما ساقه المصنف رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة على أن النذر عبادة وقرية لله عز وجل ، والعبادة حق لله ؛ فمن صرف شيئاً منها لغيره كان بذلك مشركاً بالشرك الأكبر الناقل من الملة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] ، فالعبادة حق لله عز وجل وصرفها لغيره شرك به .

وقوله ((من الشرك النذر لغير الله)) «من الشرك» أي : من الشرك الأكبر الناقل من الملة «النذر لغير الله» . والنذر : أن يوجب المكلف على نفسه ما ليس بواجب عليه ، مثل أن يوجب على نفسه صياماً أو عمرةً أو صدقةً أو صلاةً أو غير ذلك من الأعمال ؛ فإذا أوجبها على نفسه سواء تبرراً أو جعلها مشروطةً لحصول مطلوبٍ أو زوال مكروه ، كأن يقول مثلاً : "الله عليّ إن كذا وكذا أن أذبح شاة ، أو أصوم يوماً أو أسبوعاً أو شهراً ، أو أن أعتمر أو نحو ذلك" ؛ فهنا يكون أوجب على نفسه ما ليس بواجب عليه في أصل الشرع .

والسنة جاءت بالنهي عن ذلك وأن الأصل في العبد أن يتقرب إلى الله عز وجل بالعبادات بسماحة نفس دون أن يخرج نفسه ، وكم يقع كثير من الناس في إحراج أنفسهم بنذور أوجبوا فيها على أنفسهم أموراً ليست بواجبة ، كأن يقول قائل : "الله عليّ إن رُزقت بوالد ذكر أن أذبح خمسين شاة" ، وقت حاجته للولد وطمعه في ذلك وحرصه على تحصيله لا يكون وقع في نفسه كبر هذا العمل الذي سيقدمه ، لكن إذا حصلت الحاجة وجاء وقت السداد والوفاء بالنذر يجد أنه أخرج نفسه ، ولهذا جاء في الحديث قال : ((إنما يستخرج به من البخيل)) ، بينما المسلم يقدم الطاعات والصدقات والنفقات وغير ذلك دون أن يكون ألزم نفسه بها ، وإنما يتقدم بها تنفلاً وتبرراً وتقرباً لله سبحانه وتعالى دون أن يكون قد أوجبها على نفسه فيخرجها من نفسه على وجه الإلزام ، ولهذا جاء النهي عنه وقال : ((إنما يستخرج به من البخيل)) .

وجاءت الآيات في القرآن الكريم في الثناء على من يوفون بالنذر ، وأيضاً في الإخبار بعلم الله سبحانه وتعالى بهم وإطلاعه عليهم ؛ وهذا يتضمن المجازاة والثواب ، وأيضاً جاءت بالأمر بالوفاء بالنذر في قوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٩] ؛ فهذا كله من الدلائل على أن النذر عبادة ، وعُلم ذلك من ثناء الله تبارك وتعالى على الموفين به وإخباره سبحانه وتعالى بعلمه بوفائهم؛ وهذا يتضمن الإثابة والمجازاة والإنعام ، وأيضاً أمر الله سبحانه وتعالى بذلك في قوله ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ .

والمصنف رحمه الله أورد تحت هذه الترجمة أولاً قول الله سبحانه : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ ؛ ذكر جل وعلا ذلكم في معرض الثناء على الأبرار ذاكراً ذلك في جملة خصالهم وأعمالهم التي هي محل الثناء ، فمن ذلكم أنهم يوفون بالنذر ، ذكر ذلك عز وجل ثناءً على أهلهم فعُلم بذلك أنه عبادة وقربة ، وإذا عُلِمَ أنه عبادة وقربة فالعبادة حق لله ، وصرفها لغيره سبحانه وتعالى شركٌ ناقل من الملة .

وقوله : { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ } [البقرة: ٢٧٠] .

ذكر العلم هنا يتضمن الإثابة ، أي يعلم بنفقاتكم ويعلم أيضاً بنذوركهم وقرباتكم لا يخفى عليه سبحانه وتعالى من ذلكم شيء فيثيبكم على ذلك .

وختم هذه الآية بالعلم - أي أن الله عليم يعلم - يتضمن ذلكم معنى الإثابة ؛ أي عليمٌ بذلك لا يخفى شيء منه وسيثيبكم عليه سبحانه وتعالى .

وكذلكم إذا ذُكر العلم في سياق ذكر المعاصي أو ذكر الذنوب فإن هذا يتضمن العقوبة؛ أي أن الله عليم بكم ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم وسيعاقبكم عليها . فإذا إذا حُتِمت الآية بالعلم والذي ذُكر في سياقها أعمال صالحات فهذا يتضمن الإثابة ، وإذا حُتِمت بالعلم والذي ذُكر في سياق الآية أو في أثناء الآية شيء من المعاصي أو الذنوب فإنه يتضمن العقوبة .

فإذاً هذه الآية فيها الثناء على الوفاء بالنذر ، وأن الله عليمٌ بذلك وعلیم بنذورهم كما أنه عليم بنفقاتهم وصدقاتهم، وأنه سبحانه وتعالى يثيبهم على ذلك عظيم الثواب ؛ فدل ذلكم على أن النذر عبادة وقربة لا يجوز صرفها إلا لله عز وجل ، وأن من صرفها لغيره تبارك وتعالى فقد أشرك .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من نذر أن يطيع الله فليطعه)) أي من نذر طاعة لله كأن يصوم مثلاً أو يتصدق أو يعتكف ، ومرونا نذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في الصحيح أن يعتكف في المسجد الحرام ، قال له النبي عليه الصلاة والسلام ((أوف بنذر)) ؛ فمن نذر أن يطيع الله فليطعه ؛ أي يجب عليه أن يطيع وأن يفي بهذا النذر الذي ألزم نفسه به وجعله أمراً في ذمته . ((ومن نذر أن يعص الله فلا يعصه)) ؛ إذا كان النذر نذر معصية فلا يجوز له فعل ذلك بل يُنهي عنه .

والحديث دليل على أن النذر من جملة الطاعات والقربات التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنَّ صرف ذلكم لغيره سبحانه وتعالى شركٌ بالله ناقل من ملة الإسلام .

والمصنف رحمه الله أورد هذا الباب وقَدَّمه على أبواب أخرى لكثرة وقوع الشرك في هذا الباب «باب النذور» في مناطق كثيرة جداً ، ولهذا عقد هذه الترجمة وقَدَّم هذا الباب على غيره من الأبواب تحذيراً من هذا الأمر الذي كثر وقوع الناس فيه ، خاصةً من جهة أن عدداً ليس بالقليل دخلوا في هذا الشرك بالله سبحانه وتعالى من باب ما قد أصيب به بعضهم من مُصاب أو من مرض أو حاجةٍ اشتدت نفسه لتحصيلها ونيلها ، فأصبح شائع عند الجهلة والضَّالَّال قولهم مثلاً "إن قبر فلان أو ضريح فلان أو المزار الفلاني أو المكاني الفلاني يقبل النذور" ، ويعنون بذلك: أن النذور عندما تقدَّم لذلك الضريح أو لذلك القبر أو لذلك المزار نافعة في جلب النعماء أو دفع الضر والبلاء ، معنى أنه يقبل النذر: أنه ينفع ويدفع ، فيقولون المزار الفلاني أو الضريح الفلاني يقبل النذور ، ثم يذهب إليه هؤلاء زرافات ووحداً يسوقون القرابين والنذور ويستسمنونها يقَدِّمونها لذلك المزار أو لذلك الضريح .

وعندما يوافق بتوفيقٍ أو بمشيئة الله وتقديره سبحانه وتعالى الكوني القدري أن ينال إنسان شيئاً من الأمور التي كان يريدتها ؛ مثلاً شخص نذر لمزار من المزارات أو ضريح من الأضرحة إن وُلد له ولد أن يقَدِّم له كذا ، ثم وُلد له ولد ، أو أنه قدَّم النذر مسبقاً في سبيل أن يحصل ولد فقدَّر الله أن يحصل ولد ؛ كم في مثل هذا من فتنة تحصل للعوام واستدراج يحصل لهم ؟! وتجد هؤلاء العوام ينسون خلقاً كثيراً لم يحصل أحد منهم شيئاً ويذكرون قصة واحدة أو قصتين وقعت بتقدير الله سبحانه وتعالى فتنةً لهؤلاء وابتلاءً ، فيقولون : "فلان سنوات وهو ينتظر ولداً أو يشتكي من المرض الفلاني ولما قدَّم ذلك النذر لذلك الضريح شُفي أو حصل الولد أو نحو ذلك" ، فكم في مثل هذا تحصل من فتنة وضلالٍ واسعٍ عريض للعوام والجهال .

وهذا الباب لا يُلْتَفَت فيه أصلاً لتجارب الناس والحوادث الواقعة ، لا يُلْتَفَت أصلاً لهذه الأشياء ، ومن الذي يقول إن الأحكام إنما تُعرف أو يُعلم أمرها من خلال مثل هذه التجارب !! ويضَيِّعون بمقابل ذلك آيات واضحات ونصوص صريحة تجرِّم هذا الأمر وتَعُدُّه من الشرك الناقل من ملة الإسلام . فهذه من المصائب العظيمة والبلايا الكبيرة التي رزئت بها الأمة في أمكنة كثيرة بصرف هذه العبادة لغير الله ؛ ولهذا تجدهم في بعض المناطق يَخَصِّصون يوماً في السنة يقدمون فيها ندوراً لضريح ما ، أو بعضهم يعلق تلك النذور بحصول منفعةٍ أو اندفاع مثلاً مضرة أو نحو ذلك ؛ فتجد النذور تلو النذور تقدَّم للأضرحة والقبور ومن يعتقدون فيها ويعظمونها التعظيم الذي لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى . فكان الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ناصحاً للناس ولعباد الله نصحاً عظيماً بعقد هذه الترجمة وبيان أن النذر عبادة ، وأن العبادة صرفها لغير الله تبارك وتعالى من الشرك الأكبر الناقل من الملة .

فيه مسائل

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر .

وهذا الوجوب يستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام ((من نذر أن يطيع الله فليطعه)) ، ومن ثناء الله سبحانه وتعالى على الموفين بالنذر ، وأيضاً مر معنا الآية الكريمة أمر الله عز وجل بذلك ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ .

الثانية : إذا ثبت كونه عبادةً لله فصرفه إلى غيره شرك .

«إذا ثبت كونه عبادة لله» وهذا ثبت بالأدلة التي ساقها رحمه الله من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول «إذا ثبت ذلك فصرفه إلى غيره سبحانه وتعالى شرك» ؛ لأن العبادة حق لله ومن صرفها أو شيئاً منها لغيره سبحانه وتعالى كان بذلك مشركاً بالشرك الأكبر الناقل من الملة .

الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

يعني من نذر نذر معصية أن يفعل أمراً محرماً أو يرتكب أمراً منهياً عنه أو يترك شيئاً أوجب الله سبحانه وتعالى عليه أو نحو ذلك ؛ فمن نذر نذر معصية لا يجوز الوفاء به .

قال رحمه الله تعالى :

باب من الشرك الاستعانة بغير الله ؛ وقول الله تعالى : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } [الجن:٦] .

ثم عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة ((باب من الشرك الاستعانة بغير الله)) ؛ والاستعانة : التجاء واعتصام؛ وهي طلب العوذ ، يقال «العوذ» و«اللوذ» ، العوذ : في دفع ضرر ، واللوذ : في جلب نفع . فالاستعانة هي احتماؤه واعتصامه والتجاء إلى الله سبحانه وتعالى في أن يقي عبده . ولهذا الاستعانة أيضاً هي فراؤه من شيء يخشاه الإنسان أو يخاف منه أو نحو ذلك إلى من يحميه ويقيه من هذا الذي يخشاه أو يخافه . فالاستعانة لجوء إلى الله ، وجاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ» .

فالاستعانة هي التجاء إلى الله سبحانه وتعالى واعتصام به عز وجل في أن يقي عبده وأن ينجيّه وأن يكفيه شر ما يخشاه أو يخافه أو نحو ذلك . فهي عبادة من العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا قال رحمه الله : ((باب من الشرك الاستعانة بغير الله تبارك وتعالى)) أي طلب العوذ ؛ أي أن يقيه ، أن ينجيّه ، أن يسلمه ، أن يكفيه ؛ فهذا لا يكون الالتجاء فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى الذي بيده أزمنة الأمور ومقاليده السماوات والأرض .

وسبحان الله ! تأمل هذا المعنى في التوسل والدعاء العظيم الذي قال النبي عليه الصلاة والسلام فيه بعد جملة من التوسلات ((أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)) ؛ فالنواصي كلها بيد الله وهو جل وعلا الذي بيده أزمنة الأمور ومقاليده السماوات والأرض ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، من استعاذ بالله صادقاً والتجأ إليه وهو صادق في التجائه إليه وصادق في توكله عليه واعتماده عليه سبحانه وتعالى وقاه الله سبحانه وتعالى وكفاه ، وإن كادته السماوات والأرض ومن فيهن جعل الله سبحانه وتعالى له من كل هم فرجاً ومن كل بلاءٍ مخرجاً وقد قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَكْفُلُونَ عِبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] . فالله عز وجل هو الذي بيده أزمنة الأمور بيده العطاء والمنع ، الخفض والرفع ، العز والذل ، الحياة والموت ، كل شيء بيده سبحانه وتعالى فلا يستعاذ إلا به ولا يلتجأ إلا إليه ولا يتوكل إلا عليه ، لأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ولا مفر إلا إليه سبحانه وتعالى . فالاستعانة عبادة وصرف العبادة لغير الله تبارك وتعالى شرك بالله جل وعلا .

قال رحمه الله : ((وقول الله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾)) ؛ هذه الآية الكريمة يذكر الله سبحانه وتعالى فيها حال أهل الجاهلية ، ويذكر فيها نوعاً من أنواع شركهم وجاهليتهم وضلالهم ؛ أن الأفراد منهم أو الجماعات إذا نزلوا في أسفارهم بوادٍ من الأودية أو مفازة من المفازات تعوذوا بسيد ذلك الوادي من شر ما فيه ، أي تعوذوا بزعيم الجن أو الشياطين في ذلك الوادي ورئيسهم أن يعيدهم من شر الشياطين أو الأشياء التي تخيفهم في ذلك الوادي . فذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحال القبيحة السيئة لهؤلاء في هذا الالتجاء والعبادة التي يصرفونها لسيد الوادي ملتجئين إليه مستعينين به .

يقول الله سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ يعوذون : أي يلتجئون ويعتصمون ويطلبون الحماية والكفاية والوقاية.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وهذا عقوبة من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين تعلق قلوبهم والتجأت نفوسهم إلى غير الله بأن نالوا نقيض مقصودهم ؛ فهم تعلقوا بغيره ليحصلوا سلامة أو نجاة أو راحة أو طمأنينة ، فالذي حصلوه كما قال الله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ، وهذه عقوبة لهم بأن نالوا وحصلوا نقيض مقصودهم ومر معنا لذلك نظائر مثل : قوله ((انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً)) ، هنا قال : ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وهناك قال : ((فإنها لا تزيدك إلا وهناً)) أي ضعفاً ومرضاً وسُقماً وعلة . مثله أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام ((من تعلق قيمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)) ؛ هذا كله من المعاملة لهؤلاء بنقيض المقصود ، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ .

قال رحمه الله :

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ؛ لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» رواه مسلم .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بحديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك)) رواه مسلم .

قوله عليه الصلاة والسلام ((من نزل منزلاً)) هذا يتناول المنزل الذي يسكنه الإنسان بشكل مستمر ، أو المنزل الذي ينزله مثلاً بشكل مؤقت ، أو أيضاً المنزل الذي ينزله لفترة يسيرة في الطريق ؛ فيتناول ذلك كله ، من نزل منزلاً كأن يكون اشترى بيتاً فيأتي بهذا الدعاء في أول سكناه لهذا البيت ، أو استأجر مثلاً شقة ليسكن فيها شهراً أو سنة أو أقل أو أكثر فيأتي بهذا الدعاء في أول سكناه لتلك الشقة ، أو مثلاً في السفر أوقف سيارته ونزل منزلاً لساعات أو لينام في الطريق أو يرتاح لبضع ساعات فإنه أيضاً يأتي بذلك . فقلوه ((من نزل منزلاً)) جاءت «منزلاً» نكرة في هذا السياق فهي تعم ، أي تتناول ذلك كله ؛ سواء مكان بيتاً يمتلكه ، أو استأجره لفترة محددة ، أو منزلاً نزل في الطريق فإنه يأتي بهذا التعوذ المأثور عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)) ؛ «كلمات الله التامات» : قيل القرآن الكريم ، وقيل كلماته التامات أي الكونية القدريّة ، مثل ما أيضاً جاء في بعض الأحاديث ((التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)) . فالكلمات التامات تحتمل أن تكون القرآن الكريم أو أنها كلمات الله سبحانه وتعالى الكونية القدريّة .

((من قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)) المراد بقوله «من شر ما خلق» أي من شر مخلوقٍ قام فيه الشر ، لا أنّ كل مخلوقات الله سبحانه وتعالى فيها شر ، وإنما المراد «من شر ما خلق» أي من شر كل مخلوق قام فيه شرٌّ ؛ فيستعيز بالله سبحانه وتعالى هذه الاستعاذة .

وانظر هذه الاستعاذة الجامعة التي تتناول ما يخطر ببالك وما لا يخطر ببالك ، وتنبه لهذا ؛ فإن فهم الدعوات والتعوذات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم له فائدته في وقوع الأثر والنفع لذلك الدعاء ؛ فقوله ((من شر ما خلق)) هذه تتناول كل ما يخشاه الإنسان والشرور التي يتخوف منها مما يخطر في باله وأيضاً ما لا يخطر بباله .

قال ((من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء)) أي لا يحصل له ضرر مادام قد تعوذ هذا التعوذ ، لا يمنع أن تلدغه مثلاً عقرب أو نحو ذلك لكنه لا يتضرر ، لا يحصل له ضرر ما دام قد أتى بهذه الدعوة العظيمة المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام .

قال: ((حتى يرحل من منزله ذلك)) بمعنى أن هذه الدعوة تنال بها أيتها العبد حصانةً مدامت في هذا المنزل ، فإذا رحلت منه إلى منزلٍ آخر احتاج النزول الآخر إلى تحديد هذا الالتجاء والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى . وأيضاً يتطلب المقام أن العبد يعتني بذلك في كل منزل ينزله ويجهتد أن لا يفوته ذلك في أي منزل ينزله .

والإمام القرطبي المفسر رحمه الله تعالى يذكر تجربة عجيبة له تتعلق بهذا الدعاء؛ يقول في شرحه لهذا الحديث : «أن هذا الدعاء عَلِمْنَا صِدْقَهُ رَوَايَةً وَتَجْرِبَةً» يعني من حيث الرواية أو دلالة الحديث على ذلك ومن حيث أيضاً التجربة، يقول : «فإني منذ علمته ما تركته في كل منزل نزلته ، إلا ليلة نزلنا بالمهدية -منطقة- فلدغني عقرب فتذكرت أي نسيته في ذلك المنزل» .

فإذاً هذه الفائدة ويدل عليها قوله ((حتى يرحل من منزله)) يدل على أنه ينبغي على العبد أن يجاهد نفسه على تذكر ذلك في كل منزل ينزل فيه يأتي بهذه الدعوة العظيمة المأثورة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

أذكر مرةً ذكر لي أحد طلابنا بعد شرح لهذا الباب في مرةٍ سبقت ذكر قصة حصلت لبعض أقرائه قال : كانوا في سفر في سيارة وأرادوا المبيت في الصحراء فأحدهم قال أنا ما أستطيع أن أنام على الأرض أخشى أن تلدغني عقرب أو تصيبني حية أنا سأنام فوق السيارة ، فقالوا له : قل هذا الدعاء ((أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق)) ما يضرّك شيء ، قال أنا ما أستطيع وأبي ونام فوق السيارة، وهؤلاء الرفقة كل واحد منهم فرش فراشا في الأرض وأتى بهذا التعوذ ونام ، لما أصبحوا وهو فوق السيارة يطوي فراشه وإذا به يصرخ لدغته عقرب ، والعقرب قد تكون حملها مع فراشه والتصق فيه أو دخل فيه ، يعني مثل أول ما نزلوا وضعوا الفراش في الأرض فدخلت في فراشه ثم لدغته وهو فوق السيارة .

فهذه القصة هي من جنس القصة التي يرويها القرطبي عن نفسه ، ومثل هذه القصص عند أهل العلم تُذكر استثناساً لا اعتماداً ، مثل هذه القصص يستأنس بها وليس هي العمدة ، وإنما العمدة الدليل كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويكفي في ذلك أن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه الذي لا ينطق عن الهوى قال : ((من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك)) .

وأيضاً من نظائر ذلك : ما جاء في سنن أبي داود في الدعاء أو الذكر الذي يقال في الصباح والمساء ((بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء)) من قاله في الصباح ثلاثاً لم يضره شيء ، فالراوي للحديث أبان ابن عثمان كان يروي الحديث لبعض من عنده وكان أبان مصاباً بالفالج ، فأحد الحاضرين وهو يروي حديث ((لم يضره شيء)) كان ينظر إليه يعني يحدّق النظر كأن نظرات عيونه تطلب منه أن يوجد ربطاً بين هذا الدعاء وبين الإصابة التي فيه بالفالج ، فقال له أبان : «لا تنظر فإنني نسيته يوماً ليُمضي الله فيّ قدره» .

فكل هذه تؤكد أهمية المواظبة على مثل هذه الأذكار التي هي حصن حصين للمسلم في صباحه ومساءه ، وعند نومه ، وفي نزوله ، وفي دخوله وخروجه ، إلى غير ذلك من الأذكار والتعوذات المأثورة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .
والشاهد : أن الاستعاذة عبادة وصرفها لغير الله تبارك وتعالى شرك بالله .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير الآية .

أي آية الجن ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وقد مر معنا الكلام على معناها .

الثانية : كونه من الشرك .

«كونه من الشرك» أي الاستعاذة بغير الله تبارك وتعالى من الشرك بالله تبارك وتعالى ؛ لأن الله عز وجل ذكر ذلك في أعمال أهل الجاهلية وأهل الشرك بالله وأنهم يتعلقون بالجن ويلتجئون إليهم ، وذكر الله جل وعلا أن هذا زادهم رهقاً أي وهناً وضعفاً .

الثالثة : الاستدلال على ذلك بالحديث ، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

«الاستدلال على ذلك بالحديث» أي حديث خولة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)) فيقول «الاستدلال على ذلك بالحديث»؛ ما وجه الاستدلال بهذا الحديث على ذلك ؟ قال : لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، ومن استدل به على أن كلمات الله عز وجل غير مخلوقة الإمام أحمد رحمه الله وغيره من أئمة السنة في ردهم على المعتزلة وأضرابهم ممن يقولون بأن القرآن مخلوق ، ففي رد الأئمة - الإمام أحمد وغيره - على أولئك استدلو بأدلة كثيرة منها هذا الحديث حديث خولة ؛ قالوا : أن النبي عليه الصلاة والسلام صح عنه أنه قال : ((من قال أعوذ بكلمات الله التامات)) والتعوذ عبادة وصرفها لغير الله شرك ، فلو كان القرآن مخلوقاً لكان هذا تعوداً بغير الله تبارك وتعالى ؛ ولهذا يقول المصنف : «لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك» .

الرابعة : فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره .

فضيلة هذا الدعاء - أي الدعاء الوارد في حديث خولة بنت حكيم - مع اختصاره ؛ من حيث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لم يضره شيء)) ، وقوله «شيء» جاءت نكرة في سياق النفي فتفيد العموم؛ أي لا يضره أي شيء قلّ أو كثر ، صغُر أو كبر ؛ فهذا مما يدل على فضل هذا الحديث .

أيضا قوله ((حتى يرحل من مكانه)) انظر هذا الفضل العظيم ! يعني قد تسكن بيت تشتريه مثلاً وتقول «أعوذ بكلمات الله التامات» أول ما سكنت في هذا البيت ، ثم تسكن عشر سنوات عشرين سنة ثلاثين سنة ربما أنه بيتك الذي تبقى فيه إلى أن تموت فانظر هذا الفضل العظيم ((لم يضره شيء)) ، ولهذا يحتاج فعلاً المسلم أن يتنبه إلى هذا الدعاء في كل منزل ينزله ، سواءً سكنى مستمرة أو نزول مؤقت .

الخامسة : أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .
هذه فائدة عظيمة جداً وثمينة للغاية ، والمصنف رحمه الله تعالى عندما يذكر هذه الفائدة أيضاً يحسم بها سبباً من أسباب ضلال كثير من الناس في هذا الباب ، لأن كثير من الناس يضل في هذا الباب بحكاية بعض القصص يقولون "فلان انتفع أو فلان جرب أو فلان قال كذا ولم يضره شيء أو سليم" أو نحو ذلك ؛ فنبه الشيخ رحمه الله على هذه الفائدة الثمينة يقول : «أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك» ؛ مثلاً : أولئك المشركون الذين إذا نزلوا وادياً وتعوزوا بسيد ذلك الوادي ؛ إذا قدّر الله لهم في منزلهم ذلك السلامة ومنزلهم الآخر السلامة ، هل هذه السلامة دليل على صحة العمل ؟! أو مثلاً أيضاً شخص قدّم قربانا أو نحو ذلك ليوقى من شيء أو ليحصل شيئاً فقدّر الله حصول ذلك الشيء ابتلاءً وامتحاناً واستدراجاً ﴿سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القم: ٤٤] ، فمثل حصول ذلك يعني حصول المنفعة أو انتفاء المضرة هذا ليس دليلاً أبداً على صحة ذلك العمل .

يقول : «أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك» ؛ إذاً ما الذي يُستدل به ؟ وما الذي ينهض أن يكون دليلاً ومرجعاً يستدل به ؟ ليست هي التجارب ولا الآراء ولا العقول ولا غير ذلك ، وإنما الدليل : قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم . والأدلة جاءت واضحة ساق المصنف رحمه الله طرفاً منها دالةً بوضوح وجلاء على أن الاستعاذة بغير الله تبارك وتعالى شرك بالله عز وجل ناقلة من الملة .